الفصل السادس

تحديات علمية مستحدثة

الاجتهاد

● جاءت العصور الحديثة بسيل منهمر من الأفكار والنظريات ، والمعاملات المالية والعلاقات الاجتماعية ، والنظم السياسية ، وَسَعَتْ دوائر عديدة لإحلال الجديد المستورد محل كل ما هو إسلامي ، لكي تبهت الصبغة الإسلامية للمجتمع المسلم وينكمش نطاق الشريعة الإسلامية . وكان من الواجب مواجهة هذه التحديات المستحدثة بالاجتهاد الفقهي لمعرفة ما يحل من تلك المستجدات وما لا يحل ، وإدخال الحلال تحت مظلة الشريعة الغراء ، واستبعاد الحرام وصون الأمة من التردي فيه .

● وكانت الأمة المسلمة قد عاشت زمناً طويلاً لا تعرف التجديد ، ولا تمارس الاجتهاد ، فسَادَ الجمود ، وأغلقت أبواب الاجتهاد . ولقد رفض رجال من الأزهر ذات يوم إدخال «علم تقويم البلدان» في المناهج الدراسية ، واتهموا الذين طالبوا بإدخاله بمحاولة الغض من علوم الدين . وأصر شيوخ عديدون على رفض كل علم إلا إذا كان قد قال به شيوخهم المباشرون أو أحد الفقهاء الذين توفاهم الله ! [(١)] وكذلك فعل الشيوخ في عهد المرابطين : «حتى نُسى النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ [(٢)] .

---

(١) محمد عبده ؛ الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ؛ سلسلة المواجهة ؛ رقم ٢ ؛ ص ١٤٦ ، وص١٦٠

(٢) الدكتور عبد المجيد النجار ؛ تجربة التغيير «في حركة المهدى بن تومرت» ؛ نشر المؤلف ؛ تونس ؛ سنة ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م ص ٢٧

– والإسلام بريء من الجمود . وعلماء أصول الفقه فصَّلوا القول في الاجتهاد ، وبينوا أحكامه ، وشروط ممارسته ، ويسروا ذلك ، فقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله إن المجتهد : «لا يشترط إلا أن يكون ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف:١٠٨) فيما يفتى ، فيفتي فيما يدري ، ويدري أنه يدري ، ويميز بين ما لا يدري ، وبين ما يدري ، فيتوقف فيما لا يدري ، ويفتي فيما يدري»[١]. ولا عيب في ذلك ، «وقد سئل الإمام مالك رحمه الله عن أربعين مسألة فقال في ست وثلاثين منها : «لا أدري» وكم توقف الشافعي رحمه الله ، بل الصحابة ، في المسائل»[٢].

– فالاجتهاد في بعض المسائل ، دون الكل ، جائز . والقائم بذلك يسمى المجتهد الجزئي . وهذا يصدق على كثير من العلماء . ويدخل فيهم المتخصصون في مسائل شرعية معينة . فالذي درس الزكاة وحصل على درجة الدكتوراه فيها له أن يجتهد فيها ، وليس له أن يجتهد في غيرها . وهكذا انفتح باب الاجتهاد دائماً ولم يُغلق ، وإنما انغلق بعض العلماء على أنفسهم وعلى شيوخهم . فليس في الإسلام جمود ولا انغلاق ، ويجب أن يوجد المجتهدون في كل عصر ، والقرآن الكريم : «لا يزال بين دفَّات المصاحف ، طاهراً نقياً بريئاً من الاختلاف والاضطراب ، وهو إمام المتقين ومستودع الدين ، وإليه المرجع إذا اشتد الأمر وعظم الخطب»[٣].

– فليس لنا نحن المسلمين عُذر في التوقف والتردد ، والاضطراب ، إزاء التحديات الحديثة ، الفكرية والعملية . لكننا ترددنا وتلعثمنا في العديد من المسائل ، الأمر الذي يسَّر لكثير من المحرمات أن تنتشر في بلادنا . وآخر ذلك الحكم في شأن الفدائيين الذين يناضلون ضد الصهاينة في فلسطين السليبة ، والحكم في الزواج العرفي ، والحكم في المخدرات والدخان والحكم في تأميم ممتلكات الأفراد في النظم الاشتراكية ، والحكم في أرباح المصارف الحديثة ،

---

(١) المستصفى ؛ ص ٤٨٢

(٢) الموضع نفسه

(٣) محمد عبده ؛ السابق ؛ ص ١٦٩

والحكم في زواج المسلم باليهودية (الآن ونحن مع إسرائيل في حالة حرب) ، والحكم في التسعير الجبري ، والحكم في الانقلابات العسكرية ، وغير ذلك من المستحدثات التي تتحدانا أن نجتهد وأن نبين حكم الشريعة فيها .

- ولقد صار هذا التردد سمة لحياتنا الإسلامية . وهو مَعْلَم من معالم الاختلاف بين حال المخاطبين اليوم وحال من سبقهم . فلم تشهد الحياة الإسلامية قبل عصر الاحتلال الأجنبي مثل هذا التردد أو التميع في مثل هذه الكثرة الهائلة من الأفكار والنظم والعلاقات ، بل إن هذه المسائل في الأغلب جاءت بسبب الاحتلال والاحتكاك الكثيف بالغرب .

تدهور أحوال الدعاة

- ومن التحديات المستحدثة تدهور مستوى الدعاة علمياً وثقافياً وخُلقياً . فالتعليم الجامعي في كليات الدعوة هابط ، والخريجون أشباه متعلمين ، ورسائل الماجستير والدكتوراه نُقُول متوالية . ومؤلفات أعضاء هيئة التدريس قليلة وتفتقر إلى الإبداع العلمي ، إلا من رحم الله تعالى .

- والكتابة الصحافية في أبواب الدين ، في الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات الشهرية منفصلة عن حياة الأمة ، وتشغل نفسها بتصريحات وأخبار وتحقيقات غير مجدية . وهناك عزوف عن استخدام الفنون والآداب .

● فالتدهور عام ، في الكم والكيف معاً .

● ويقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ، وهو أحد الذين مارسوا الدعوة حوالي نصف قرن في مصر ، في وزارة الأوقاف وخارجها : « إن هناك أناساً يشتغلون بالدعوة ثقافتهم مغشوشة ، قرأوا كتباً أُلِّفَت في عهود الاضمحلال ، أو حفظوا آراء قالها قوم عديمو الفقه . وقد يتعصبون لأوضاع جَرَّت على الإسلام البلاء ، أو تمر بهم أحداث حافلة بالعِبَر فلا يفيدون منها عبرة ! وقد يعرفون من الحق بعضه ويجهلون أو يجحدون البعض الآخر . أما علمهم بما جَدَّ في أرجاء العالم من أطوار ، وما يستتبعه ذلك من أقضية ذكية ، فصفر »[1] .

---

(١) علل وأدوية ؛ دار القلم ؛ دمشق ؛ ط ١ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ؛ ص ٢٤٥ .

● في هذا التحدي يواجه الدعاة أنفسهم ، فالتدهور في تعليمهم وفي دراساتهم وفي كتاباتهم وفي ثقافتهم ؛ وهذا يتنافى مع الواجب الذي يحتم أن يكون الداعية ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف:١٠٨) ، وعلى منهج الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن،وأن يتمرس بكل الوسائل الدعوية الأدبية والفنية كل فيما يخصه، لكي يستطيع أن يواجه أعداء الإسلام الذين يسيطرون على وسائل التأثير ، ويديرونها باقتدار .

● هذا التحدي أصعب من التحديات الأخرى ، لأن مواجهة النفس يضعفها الغرور والرضا الزائف عن النفس وكراهية النقد واقتحام الجديد وتبعات التعلم المستمر أبداً .

● و«البصيرة» تتنافى مع مظاهر التدهور هذه كلها . فهي تعني : العلم والخبرة والحجة . وهي : «نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار ، وما أعد الله في هذه لأوليائه ، وفي هذه لأعدائه»[1]. والنور يأتي من كسب الإنسان في الدرس والتحصيل . والقدرات الموروثة شرط للنبوغ في العلم . وتقاليد العلماء المسلمين تقتضي الاستمرار في البحث والدرس والتعليم والدعوة ، فيعيش الداعية مع المحبرة إلى المقبرة ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله . أما التوقف بعد مرحلة معينة فلا يحقق البصيرة ، ولا يحافظ على وجودها إن كانت قد وجدت . فالقلب يشبه البطارية الكهربائية ، لا بد من شحنه وتجديد طاقته . وبهذه المثابرة تأتي مرحلة النضج التي هي أغنى فترات الحياة العلمية . وأما التوقف فيقصر دون النضج ، ويفضي إلى الضمور والمراهقة العلمية الدائمة .

- و«البصيرة» التامة لا يبلغها إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . وكبار الأئمة الذين يتفرغون للعلم ، ولا يشغلون أنفسهم بتجارة أو زراعة أو سُلطة ، يفوزون بأوفى نصيب منها . وبقدر النبوغ الموروث ، والتفرغ للدرس والتحصيل والدعوة ، والمثابرة في كل ذلك ، يكون نصيب الداعية من «البصيرة» .

---

(١) ابن القيم ؛ مدارج السالكين ؛ تحقيق محمد حامد الفقي ؛ نشر مكتبة السنة المحمدية (دون تاريخ)؛ جـ ١ ص ١٢٣ .

ذيوع الخرافات

- ومن التحديات التي تواجه تطوير الخطاب الديني اليوم ذيوع الخرافات بين الجماهير . ولا ريب أن الخرافات كانت موجودة منذ القدم ، لكن العالم تخلص منها في العصر الحديث إلى حد كبير ، وشاعت أساليب التفكير الموضوعي بين الناس . وهذا سبب أساسي لتقدم المجتمعات البشرية . غير أن شعوبنا المسلمة لا تزال ترسف في أغلال الخرافات والخزعبلات . والشيء المؤسف هو تورط كثير من الوعاظ والخطباء والكتاب المسلمين في أحابيل الخرافات والإسرائيليات ، والترويج لها على المنابر!

● وجذور المشكلة تضرب في صفحات كتب التراث . بل إن بعض المصادر المحترمة تنطوي على بعض الخرافات التي تنقل منها إلى الدعاة بيسر ، لما لهذه المصادر من احترام وتقدير . وعلى سبيل المثال يورد الطبري رحمه الله في تفسيره قصة فتى موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ وكيف أنه شرب من ماء الخلد فخلّد ، وأنه يضرب في عرض البحر في سفينة إلى يوم القيامة !

- ونحن نعلم يقيناً أنه لا يوجد شيء اسمه « ماء الخلد » وأنه لا خلود لمخلوق ، والله تعالى يقول ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (الرحمن:٢٦).

● وتنشر الصحف اليومية كلمة عن « النجوم » ، ويصدِّق كثير من القراء تنبؤات المنجمين ، وتنسى الصحفُ وقراؤها قول الله تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن:٢٦،٢٧).

● وهناك كتب عديدة ، مطبوعة ومتداولة ، في الوعظ والخطابة ، فيها من الخرافات أكثر مما فيها من العلم الصحيح .

● والأمية المنتشرة بنسب عالية في العالم الإسلامي تربة خصيبة للخرافات .

● فهذا أحد التحديات العلمية والتربوية التي تواجه الدعاة ، وتعرقل عملهم ، وتحتم عليهم تطوير الخطاب الديني لتنقية عقول الدعاة والمدعوين من الخرافة .

● ونتيجة للأوضاع السابقة ، ضعُفت الدول المسلمة من جميع النواحي العلمية والتقنية والسياسية والاقتصادية ؛ وعجز المسلمون عن حماية بلادهم ، فضاعت فلسطين وتركمانستان وكشمير وأجزاء من البوسنة ، وضاع الاستقلال الذاتي للشيشان بعد أن خربها الروس ؛ وحتى دولة إريتريا الصغيرة المعدمة المنفصلة حديثاً عن إثيوبيا فاجأت اليمنيين باحتلال جزيرة حنيش في البحر الأحمر!

– وتعاني الأقليات المسلمة من القمع في روسيا والصين والهند والولايات المتحدة ـ بعد ٢٠٠١/٩/١١ خاصة ـ وفي أوربا الغربية . ولا تستطيع البلاد المسلمة أن تقدم لها يد المعونة .

● وهاهي أمريكا تخرب أفغانستان ثم تحتلها، ثم تغزو العراق وتحتل أراضيه، دون أن يستطيع المسلمون تقديم أي شيء يذكر لإخوانهم المنكوبين . وتهدد أمريكا سوريا وإيران ، وتغير طائرات إسرائيل على سوريا ، فلا يستطيع المسلمون عمل شيء يردعها .

– ولأن لكل قاعدة شواذ، فإن حزب الله في لبنان، والمقاومة الفلسطينية الباسلة، هما الشواذ على قاعدة الضعف السائدة .

● هذا الضعف ، وهذا التخلف العام ، يحتاج إلى منهج دعوي إغاثي آني ، لجمع المعونات لفصائل المقاومة ، ومنهج دعوي شامل لإنهاض الأمة من كبوتها ، والأخذ بأسباب القوة في جميع النواحي ، والله تعالى يقول ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

● وإن خطوة شجاعة من الدول المسلمة الكبيرة للوقوف معاً ، والتعاون معاً ، لَكَفيلة بإعادة التوازن لموقف المسلمين من الغرب ، وبث القوة والحرارة في الشعوب والجيوش المسلمة ، لتنفض عنها أدران الضعف والهوان .

– والعالم له عندنا مصالح كبرى ، لكننا لم نستطع أن نستثمرها في الدفاع عن بلادنا وشعوبنا ، باستثناء الحظر البترولي الذي قادته المملكة العربية السعودية لكبح

الاندفاع الأمريكي الجنوني في تأييد الاستعمار الصهيوني الاستيطاني في فلسطين سنة ١٩٧٣م .

● صنوة القول ـ إذن ـ في نهاية الباب الأول من هذه الدراسة ، إن أحوال المخاطبين في هذا العصر قد اختلفت عن أحوال من سبقهم اختلافات واسعة وعميقة ، الأمر الذي يحتم تطوير الخطاب الديني .

- ولا أزعم أنني استوفيت دراسة تلك الاختلافات في كل بلاد العالم الإسلامي ، وبكل تفاصيلها . فمثل هذه الدراسة الوافية تحتاج إلى كتاب كبير ، أو رسالة دكتوراه . وفي هذه الحالة سوف نكتشف تفاصيل عديدة وكثيرة ، ونوعية ، بسبب الظروف المحلية المختلفة في بلاد العالم الإسلامي . لكنني أزعم أن الحقائق العامة التي كشف عنها هذا الباب ، كدور الاحتلال الأجنبي والاحتكاك الكثيف بين العالم الإسلامي والغرب ، ودور الاستشراق والتنصير ، وظهور الجاليات المسلمة في البلاد الغربية ، والبعثات الطلابية وحركات الردة بصيغها المختلفة ، والتحديات الدعوية والعلمية ، لن تتغير ، ولن تُنْفَى ، ولا يمكن أن تُنكَر في أية دراسة موسعة.

- الدراسة الوافية سوف تُلقي المزيد من الأضواء على هذه الحقائق ، وسوف تؤكدها ، وترتب آثارها من حيث القوة ، وتقدم وتؤخر في تصنيفها .

● ومن دراستنا للباب الأول ثبت لي أن بيان اختلاف حال المخاطبين اليوم عن حال من سبقهم مبحث تمهيدي ضروري للبابين الثاني والثالث ، ولذلك جعلته موضوعاً للباب الأول . فاختلاف أحوال المخاطبين يتطلب وسائل جديدة مختلفة . وقد اختلف فكر المخاطبين اختلافات جذرية ، فكان من المحتم أن تختلف الوسائل . والقوى المناهضة للإسلام تستخدم وسائل أدبية وفنية وتقنية متنوعة ، فلابد أن نسخر تلك الوسائل نفسها للدعوة الإسلامية .

● واختلاف أحوال المخاطبين ، واختلاف وسائل الدعوة ، لابد أن يوازيه تطور في منهج الدعوة . وهكذا تنتظم الأبواب الثلاثة في كلٍّ عضوي واحد ، يمكن أن يكون فيه عون حقيقي للدعاة ويمكن أن يسهم في تأسيس علم الدعوة الإسلامية .

● والمنهج الدعوي ثابت لا يتطور ، لأنه محكوم بنصوص الكتاب والسُّنة . وهي نصوص قطعية الثبوت ، لكنها ظنية الدلالة . وعلى هذا يمكن أن نطور مفهومنا للحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ونحن ندعو أقواماً مؤمنين بالعلوم التجريبية ، وتسيطر عليهم الفلسفة المادية والحسية . وليس من الحكمة أن نغفل ثقافة المخاطبين ونمعن في الاستناد إلى المنامات والكرامات التي لا سند لها من كتاب أو سُنة ، كما كان يفعل بعض الوعاظ من أجدادنا .

- والقول نفسه يصدق على : الموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، فهما أصلان ثابتان مستندان إلى نص قطعي الثبوت ظني الدلالة . وهذه «الظنية» هي التي تتيح لنا تطوير مفاهيمنا أو توسيعها . وهذا هو موضوع الباب الثالث من هذه الدراسة .

* * *